الأثر البلاغيّ للسياق في بنية سورة الفيل

د / شعبان شوقي عبد المحسن
مدرس بقسم البلاغة و النقد
في كلية البنات الأزهريّة بالمنيا الجديدة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، و بعد :

فإنَّ القصصَ القرآنيَّ قَصصٌ واقعيٌّ حقِيقيٌّ ، ليس للخيال فيه موضعٌ إلّا في إطار تأكيد الواقع و تقريره ، و الإثارةُ و التشويقُ في القصص القرآنيّ ناشئٌ من نظمه المُحْكم ، هذا النظمُ الّذي يأخذ بلُبِّ القارئ و يمجامع نفسه بشيءٍ ممَّا استتر و توارى فيه من أسرار بلاغيّة ،لا يعرفُ كُنْهَهَا إلَّا مُنَزِّلُ الكتاب.

و من القصص القرآنيّ قصّةُ أصحاب الفيل ، التي اختصت بها سورةٌ من قصار السور سورةُ الفيل ، فقد حملت بنيةُ نظمِهَا المُوجزِ المُحْكَمِ أحداثَهَا ، التي تحتاج لسردها إلى صفحاتٍ ، فالنظم القرآنيّ المُعْجز نسج أحداثَ قصة أصحاب الفيل في خمسِ آياتٍ قصيرةٍ مُعجزة نسجًا موجزا محكما مُثِيرًا يَدْعُو إلى الاجتهاد للتعرف على أسراره.

و هذا ممَّا دفعني إلى الاجتهاد قدرَ طاقتي مستعينا باللّه للكشف عَمَّا عَنَّ لي من أسرار هذا النظم المُعجز ، و قد جعلتُ السياقَ دَلِيلي للكشف عن شيءٍ من هذه الأسرار ؛ و لذلك جعلتُ عُنوانَ بحْثي : " الأثر البلاغيّ للسياق في بنية سورة الفيل ".

و قد كان منهجي في هذه الدراسة منهجا تحليليًّا ذوقيًّا مُعْتَمِدًا على كشف الخيوط الدقيقة التي تصل مدلول التراكيب و الألفاظ بسياقها الّذي وردت فيه ، و التدقيق في بناء الجمل و ما بين ألفاظها من علاقاتٍ و روابطَ.

و قد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن يأتي البحث في مبحثين اثنين مسبوقين بمُقَدِّمَة و تمهيد و مثْلُوّين بخاتمة و فهرس المصادر و المراجع.

فأمَّا المُقَدِّمة فذكرت فيها قيمة الموضوع ، و دافع اختياره ، و منهج السير فيه.

و أمَّا التمهيد فذكرت فيه : المفهوم اللُّغويّ و البلاغيُّ للسياق و أهميّتــه في اصطفاء بنية النظم القرآنيّ. و يشمل الآتي :

أ – المفهوم اللُّغويّ و البلاغيُّ للسياق.

ب – أهميّة السياق في اصطفاء بنية النظم القرآنيّ

و أمَّا المبحث الأوّل فعنوانه : أثر السياق في اصطفاء الألفاظ و التراكيب.

و أمَّا المبحث الثاني فعنوانه : أثر السياق في اصطفاء صورة المعنى البلاغي.

و أمَّا الخاتمة فقد رصدت فيها أهمَّ نتائج البحث ، ثمّ ذكرت مصــادر البحــث و مراجعه.

تمهيد

المفهوم اللُّغويّ و البلاغيُّ للسياق و أهميّته في اصطفاء بنية النظم القرآنيّ

أ – المفهوم اللُّغويّ و البلاغيُّ للسياق.

إذا تأملنا الدَّلالةَ اللغويّة للسياق نجد أنّ السين و الواو و القاف أصل واحد ، و هو حَدْوُ الشيء ، تقول : ساق الإبلَ و غيرَهَا يسُوقها سَوْقًا و سِيَاقًا و هو سائق و سوَّاق . و قد انساقت و تساوقت الإبلُ تسَاوُقًا : إذا تتابعت.(١)

و الواضح أنَّ المادة اللُّغويَّة تدور على الحَدْو و الطرد إلى جهة واحدة ، فلا يبعد أن يكون المُراد بالسياق في اللغة سوقَ الكلام و حدْوَه إلى مقصد واحد ، أي: يكون الكلام من جنس واحد ، و أن يكون على نسق واحد ، ما دامت الجهة و المقصد الذي يهدف إليه الكلام واحدًا. و بهذا يمكن أن يقال أنَّ المفهوم البلاغيّ للسياق هو سوق الكلام إلى مقصد يريده المتكلم ، و ذلك بتتابع المفردات في الجمل ، و تتابع الجمل في النص ، و هذا التتابع للمفردات و الجمل ينتظم في جهة معنويّة واحدة موصِّلة إلى مقصد المتكلّم و مُرَاده . فمقصد المتكلّم و مُرَاده من سوق الكلام هو المقام أو الحال " السياق الخارجي " ، و الجهة المعنويّة التي انتظم فيها الكلام لتحقيق مقصد المتكلم و مراده هي المقال " السياق الداخلي المتمثّل في المعنى الكلّي و المعنى الجزئي للنص ".(٢)

---

(١) ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : سوق " : ٣ / ١١٧. ط – دار الفكر. و لسان العرب لابن منظور . تحقيق : عامر أحمد حيدر " مادة : سوق " : ١٩٩/١٠. ط – الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣م.

(٢) أثر السياق في اصطفاء الأساليب دراسة بلاغيّة . د / إبراهيم صلاح الهدهد : ١٤ ، ١٥ ، ٦٢ ، بتصرف يسير . ط- الأولى ، الجريسي ١٤٢٣ه – ٢٠٠٢م.

ب – أهميّة السياق في اصطفاء بنية النظم القرآنيّ.

و السياق بنوعيه الحالي و المقالي له أثر في اصطفاء الألفاظ و التراكيب ، فهو الذي يحدد مدلولات الألفاظ و التراكيب ، و يجعل أجزاء الكلام بعضه آخِذاً بأعناق بعض. و النص القرآنيّ نص محكم ، و نظمه الخاص به من أبرز وجوه الإعجاز عند القدماء ، و قد تنبّه علماؤنا القدماء على أهمية السياق فيه ؛ للكشف عن أسراره و نكته ؛ لذا قال الزركشي : " دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل ، و القطع بعدم احتمال غير المراد ، و تخصيص العام ، و تقييد المطلق ، و تنوع الدلالة، و هو من أعظم القرائن الدَّالة على مراد المتكلم ، انظر إلى قوله – تعالى –: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }[1] كيف نجد سياقه يدل على أنَّه الذليل الحقير."[2]

و السياق مُهِمّ في بيان المناسبات كقوله – تعالى – في سورة القصص : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ}[3] فقد خُتِمت الآية الأولى بقوله : " أَفَلا تَسْمَعُونَ " ، و الثانية بقوله : " أَفَلا تُبْصِرُونَ " ؛ لأنّ سياق الآية الأولى كان الحديث عن سرمديّة الليل ، فزُيّلت الآية بما يناسب هذا السياق و هو قوله :" أَفَلا تَسْمَعُونَ " ، فالظلام تُدْرَك فيه المسموعات دون المُبْصَرات. أمَّا الآية الثانية فسياق الحديثِ فيها عن سرمديّة النهارِ ؛ فزُيِّلت بما يناسب هذا السياق و هو قوله :" أَفَلا تُبْصِرُونَ " ؛ لأنّ المُبْصَرات تُدْرَك نهارا و لا تُدْرَك ليلا ، فجئ مع كل سياق في هاتين الآيتين بما يناسبه.

---

(١) سورة الدخان : ٤٩.

(٢) ينظر : أثر السياق في تحديد دلالة " علم " في القرآن الكريم . د / صيوان خضير : صـ ٣ " جامعة البصرة – كلية الآداب – مجلّة آداب ذي قار – مجلد (١) – العدد (٤) سنة ٢٠١١م. "

(٣) سورة القصص : ٧١ ، ٧٢.

و السياق مُهِمّ في التعرّف على أسلوب الكلام حين يخالف ظاهرُه المقصودَ به، و ذلك حين يأتي التعبير بالماضي و المقصود المضارع ، أو العكس ، و حين يكون الأسلوبُ ظاهرُهُ الخبرُ و المقصود به الإنشاء ، و مثاله قوله – تعالى-: { وَ الْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ }[1] { وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ }[2] الأسلوب خبر ، لكن المراد من ذلك الأمر ، و المُرْشِد هو السياق ، لكنَّه كان على الخبر تأكيدًا ، قال الزركشيّ – رحمه الله – عن هاتين الآيتين : " السياق يدلّ على أنَّ الله – تعالى – أمر بذلك، لا أنَّه خبر. "[3]

و للسياق دور بارز في ترجيح بعض الأقوال التفسيرية ، و مثاله ما ذكره الطبري عند تفسيره لقوله – تعالى - : { يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ }[4]

من الخلاف الذي نشأ بين نافع بن الأزرق و ابن عباس ، فقد ذهب نافع استنادا إلى معتقده أنّ قوما من المسلمين يُخَلّدون في النار، و ذهب ابن عباس معتمدا على فهم سياق الآية إلى

أنَّ الآية خاصة بالكافرين ؛ لأنَ الحديث السابق عليها كان عنهم، يقول– تعالى– : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[5].

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٨.

(٢) سورة البقرة : ٢٣٣.

(٣) ينظر : دلالة السياق و أثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام " رسالة ماجستير للطالب / فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي " : ٧٤ ، ٨١ " كلية الدعوة و أصول الدين – جامعة أم القرى – المملكة العربيّة السعوديّة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م. ".

(٤) المائدة : ٣٧.

(٥) – المائدة : ٣٦.

و إذا كان للسياق دورٌ في ترجيح بعض الأقوال التفسيرية، فله دور – أيضا– في ترجيح بعض الأقوال الشعريّة المختلف في معانيها ، ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن رشيق في معنى قول الشاعر الراعي من بحر " الطويل " :

هَجَمْنَا عَلَيْهِ و هو يَكْعَمُ كَلْبَه ... دَعِ الكَلْبَ يَنْبَحْ ؛ إنَّما الكَلْبُ نَابِحُ

فقد ذهب بعضُ الشرّاح إلى أنّه مدحٌ للمخاطَب بأنَّه يكعم كلبه لئلّا يَعْقِرَ الضيوف ، و ذهب آخرون إلى أنّه ذَمٌّ للمخاطب بأنَّه يكعم كلبه لئلّا ينبحَ فيدُلَّ عليه الضيفَ. وسعى ابن رشيق إلى ترجيح الدَّلالة الثانية موظِّفًا بنيةَ السياقِ الحَافِّ بنظم البيت ، يقول : " وأنا أعرف هذا البيت في هجاء محْض للراعي هجا به الحطيئة، و هو:

ألا قبَّحَ اللهُ الحطيْئَةَ؛ إنَّه ... على كُلِّ مَنْ وَافَى مِن النَّاسِ سَالِحُ

ويروى : على كل ضيف ضَافه فهو سالح

هَجَمْنَا عَلَيْهِ و هو يَكْعَمُ كَلْبَه ... دَعِ الكَلْبَ يَنْبَحْ ؛ إنَّما الكَلْبُ نَابِحُ

بَكَيْتَ على مَذْقٍ خَبِيثٍ قَرَيْتَهُ ... ألاَ كُلُّ عَبْسِيٍّ على الزَّادِ نَائِحُ "

و بالسياق الذي ورد فيه البيت رجّح ابن رشيق الهجاء.[1] للسياق – إذن – بنوعيه الحالي و المقالي أهمية كبرى في تحديد مدلولات الألفاظ و التراكيب داخل بنية سورة الفيل ، و هي سورة مكيّة باتفاق ، و هي خمس آيات.[2] يقول الله –

---

(١) ينظر : دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيريّة. د / محمد إقبال عروي : ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٣. ط – الأولى ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلاميّة – دولة الكويت ٢٠٠٧ م – ١٤٢٨هـ. و العمدة لابن رشيق . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ١٨٧. ط – الخامسة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) ينظر : التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور : ٣٠ / ٥٤٣. ط – الدار التونسيّة ١٩٨٤م. و اللباب في علوم الكتاب للإمام أبي حَفْص عُمَر بن عليّ الدِّمَشْقيّ الحَنبليّ . تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، و الشيخ علي محمد معوض : ٢٠ / ٤٩٦. ط – الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

تعالى – : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ }.

بُنِيَتْ سورةُ الفيل على الجملة الفعليّة التي تصدّرت بالفعل المُضَارع في ثلاث آيات ، آيتان منها مضارعهما منفيّ بعد استفهام و هما : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ " ، و الثالثة مضارعها مثبت ، لم يسبقه نفي و لا استفهام و هي : " تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ". و تصدّرت آيتان بالفعل الماضي و هما : " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيل " ، " فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ". و هذه البنية القائمة على الفعل هي نِتاج المعنى الأمّ لسورة الفيل و هو " كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل " ؛ لأنَّ كيفيّة الفعل تحكمها من بدايتها إلى نهايتها الحركة الناتجة عن الفعل. فالمعنى الأمّ " كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل " هو المُقَرَّر برؤيته ، و هو الذي دارت في فلكه بقيّة معاني السورة موضّحةً جانبيه المجملين : الجانب المعنويّ في قوله – تعالى – : " أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ " ، و الجانب الحسيّ في قوله – تعالى – : " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ".

و قد اصطفى السياق كل لفظة و تركيب في هذه البنية ، و وضعها موضعها المعجز ، و هذا ما سيكشف عنه البحث إن شاء الله.

و سورة الفيل قصة قرآنيّة بدأت باستفهام تقريريّ مثيرٍ للاهتمام " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، فالمخاطب النبيّ – صلّى الله عليه و سلّم – يعلم قصةَ أصحابِ الفيل ، و لكنّه الإيناسُ و إدخالُ الطمأنينة إلى قلبه ؛ و لذلك أردفه باستفهام تقريريّ آخر هو وليد الاستفهام الأوّل و خارج من رحمه " أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ " ، و في هذا الاستفهام إثارة و تشويق ، حيث ذكر نهاية القصة في البداية موضّحًا الجانبَ المعنويَّ المُجْمَل في الاستفهام الأم " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، ثمّ جاء البيان الشافي لإيضاح الاستفهامين التقريريين في صورة حسيّة في ثلاث آيات قصيرة " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ". فقصةُ أصحاب الفيل التي جمعت خيوطَ أحداثِها هذه الآياتُ الخمسُ القصيرةُ قصةٌ معروفة عند العرب مُتَداولةٌ بينهم، و لكنَّ روعتَها تكمن في نظم بنيتها نظمًا مُحكمًا موجزًا بليغًا. و القصة القرآنية تختلف عن القصة الأدبيّة التي هي نتاج البشر ، و التي تعتمد على الخيال للإثارة و التشويق ، فالقصة القرآنية هي قصة واقعيّة حقيقيّة ، و هي وسيلة لإبلاغ الدعوة و تثبيتها و تمكينها في النفوس ، ليس فيها ما في القصة الأدبية من زيف و اعتماد على الخيال.[1]

(١) ينظر : الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني سورة يوسف أنموذجا " ماجستير للطالبة / أمنة عشاب : ٢٠ ، ٣٠ " وزارة التعليم العالي – جامعة حسيبة بن بو علي بالشلف – كلية الآداب و اللغات ٢٠٠٦م – ٢٠٠٧م.

المبحث الأوّل

أثر السياق في اصطفاء الألفاظ و التراكيب

المبحث الأوّل

أثر السياق في اصطفاء الألفاظ و التراكيب

قد ذُكِرت سورةُ الفيل عقبَ سورة الهُمَزة ، و لعلّ المناسبةَ في ذلك التعقيب هي أنّه – تعالى – لمَّا ذكر حالَ الهُمَزة اللُّمَزة الذي جمع مالًا و عدّده ، و تعزَّز بماله و تقوَّى ، و ما لحقه عقابًا على ذلك من عذاب في الآخرة ؛ عقّب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل الذين استقْوَوا بالمال و الرجال و العُدّة و العَتَاد ، فأهلكهم الله بطير ضعيف صغير ، و جعلهم كعصف مأكول.(١)

فالغرض الرئيس لسورة الفيل هو الدَّلالة على إهلاك المُستقوين على الحق بأسباب الدنيا من مال و رجال و عتاد و عُدَّة ، و في هذه الدَّلالة تسليةٌ للرسول – صلَّى الله عليه و سلَّم – عمَّا يلاقيه من أذى المشركين و تكذيبهم. و قد أشار إلى هذا الغرض الرئيس الإمام البقاعي – رحمه الله – إذ يقول: "مقصودها الدَّلالة على آخر الهُمَزة من إهلاك المكاثرين في دار التعاضد و التناصر بالأسباب ."(٢) و هذا الغرض الرئيس يُشير إلى المعنى الأمّ للسورة المتمثّل في كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل، أي : هيئة و صورة فعل الله بأصحاب الفيل ، و قد تجسّد هذا المعنى الأمّ في الجملة الأمّ لسورة الفيل : " كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ".

و هذا السياق المتمثّل في الغرض الرئيس و المعنى الأمّ لسورة الفيل قد اصطفى ألفاظه و تراكيبه ، فاصطفى فعل " الرؤية " في قوله – تعالى – : " ألم تر " دون "

---

(١) ينظر : أسرار ترتيب القرآن للسيوطي. تحقيق : عبد القادر أحمد عطا : ١٥٧. ط – الثانية ، دار الاعتصام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. و تناسُق الدرر في تناسب السور للسيوطي . تحقيق : عبد القادر أحمد عطا : ١٤٣ ، ١٤٤. ط – الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت- لبنان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي : ٢٢ / ٢٤٩. ط – دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة.

النظر "و " الإبصار" ، و عند تأمل الفروق اللغوية بين الألفاظ الثلاثة يُماط اللِّثامُ عن سرّ هذا الاصطفاء. فالنظر هو تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشيء و رؤيته ، يُقَال : نظرتَ إلى كذا : إذا مددتَ طَرْفَك إليه رأيته أو لم تره. و البصر يُقَال للجارحة الناظرة و للقوة التي فيها ، فالبصر يكون بدايةً لكشف الصور والأشياء. و الرؤية هي إدراك المَرْئِيِّ إدراكًا كاملًا لا شكّ فيه. و إذا تأمّلنا فعل"الرؤية"،نجد أنَّه ذُكِرَ في سياق الاستفهام التقريريّ في قوله – تعالى-: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، و التقرير – هنا – للنبيّ – صلَّى الله عليه و سلَّم – بما علمه عن كيفيّة إهلاك الله أصحابَ الفيلِ ، أي : الصورة و الهيئة لهذا الإهلاك. فصورة فعل الله بأصحاب الفيل كانت مشاهدة مرئيّة لَمن عاصر حادثةَ أصحاب الفيل من أهل المكان ، فقد رأَوْا بأمِّ أعيُنهم كيف أهلك اللهُ أصحابَ الفيل، فكيفيّة الإهلاك، أي : صورته و هيئته ما زالت حيّة في ذاكرة من بقي حيًّا و أخبر بها النبيَّ – صلَّى الله عليه و سلَّم – أو أخبر بها مَنْ أخبر النبيَّ – صلَّى الله عليه و سلَّم – فصورة الطير الصغير الضعيف الذي أرسله الله إلى أصحاب الفيل تحمل حجارة مهلكة مدمِّرة ، هذه الصورة مرتسمة في مُخَيِّلة من شاهد الحادثة و بقي حيًّا بعدها يخبر و يحدث عنها ؛ و لذلك ناسب التعبيرُ بفعل " الرؤية " في قوله – تعالى – : " ألم تر " دون " النظر " و " الإبصار" ؛ لأنَّ الرؤية تعني إدراك المَرْئِيّ و التحقق منه ، فالرؤية هي المرحلة الأخيرة التي تعقب النظر و الإبصار ، فالنظر هو تقليب العين حيال مكان المرئيّ طلبًا لرؤيته ، ثمّ يليه الإبصار الذي هو بداية إدراك صور الأشياء ، ثمّ تأتي الرؤية التي هي تمام إدراك المَرْئِيّ.(١)

و لا يخفى أنَّ الرؤية التَّامَّة لصور الأشياء يقتضيها المعنى الأمّ ، و هو كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، فالمقَرَّرُ به هو كيفية الفعل ، و ليس الفعل المطلق ،

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق : وائل أحمد عبد الرحمن " مادة : نظر ، و بصر ، و رأى " : ٥٩ ، ٦٠ ، ١٨٩ ، ٤٩٩. ط – المكتبة التوفيقيّة ، القاهرة – مصر . و الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد إبراهيم سليم : ٧٥ ، ٧٦. ط – دار العلم و الثقافة . و لسان العرب لابن منظور. تحقيق : عامر أحمد حيد " مادة : نظر " : ٥ / ٢٥٢ ، ٢٥٣.

و الكيفيّة ، أي : الهيئة و الصورة ، تقتضي المشاهدة الكاملة التامّة ؛ لظهورها و وضوحها تامَّة مكتملة لِمَن رأى وقتئذ ، فصورة الطيرِ المُرْسلة بالحجارة مُحَلِّقةً فوق رؤوس أصحاب الفيل ترميهم رميًا مُصيبًا صورةٌ مشاهدة ممّن عاصروا الحادثةَ من أهل المكان. و كذلك الغرض الرئيس و هو الدَّلالة على إهلاك المستقوين على الحق بأسباب الدنيا يقتضي – أيضا – الرؤية الكاملة ؛ لأنَّ الدَّلالة على شيء تحتاج إلى تمام الوضوح و الظهور ليتلبّسَ بها الإقناعُ ، و تأنسَ بها النفسُ ، و يطمئنَ معها القلبُ ، و لا يوجد أوضحُ و لا أبينُ من الرؤية الكاملة التامة لهيئة و صورة إهلاك الله أصحابَ الفيل. و لا يخفى – أيضا – أنَّ استعارة الرؤية للعلم جاء – هنا – تحقيقا لوضوح و ظهور الدَّلالة على إهلاك هؤلاء المستقوين بأسباب الدنيا ، و تحقيقا – أيضا – لوضوح و ظهور هيئة و صورة إهلاك أصحاب الفيل ؛ لأنَّ " الرؤية لا تكون إلّا لموجود ، و العلم يتناول الموجود و المعدوم ."[1]

و اصطفى السياق التعبير بـ " كيف " دون " ما " في قوله – تعالى – : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ"؛ لاعتبارين : أوّلهما : بقاء الاستفهام في " كيف " و نصبها على المصدريّة بمعنى :" أيَّ فِعْلٍ فعَلَ ربُّكَ ؟ " ؛ للتعجيب من كمال و تمام فعل الله بأصحاب الفيل ، أي : التعجيب من كمال الإهلاك و تمامه بطير صغير ضعيف مرسل بحجارة ، و هذا التعجيب ينتظم في سلك الغرض الرئيس لسورة الفيل و هو الدّلالة العامّة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا. فقد جاء في إعراب " كيف " أنَّها اسم استفهام في محل نصب على المصدريّة أو الحاليّة ، و اختار ابنُ هشام في المُغني النصبَ على المصدريّة ، حيث قال : " و عندي أنَّها تأتي في هذا النوع (يقصد استغناء الفعل بفاعله ، نحو : " كيف جاء زيدٌ ") مفعولًا مطلقًا أيضا ، و أنَّ منه : " كيف فعل ربك " إذ المعنى : أيَّ فِعْلٍ فعَلَ ربُّكَ ؟ و لا يُتّجه فيه أن يكون حالا من الفاعل (يقصد بقوله : و لا يُتَّجه ... أنَّ النصب على

(١) الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد إبراهيم سليم : ٩٤. ط – دار العلم و الثقافة

الحاليّة ممتنع في الآية الكريمة : " ألم تر كيف فعل ربك ..." ؛ لأنَّ فيه وصفَ الله – تعالى – بالكيفيّة و هو غير جائز).

و ثانيهما : تجريد " كيف " من الاستفهام ، و إعرابها مفعولًا لـــ " تر " بمعنى الكيفيّة ، أي : الهيئة و الصورة ، و هو ما أميل إليه ، فقد جاء في حاشية الخضري على شرح ابن عقيل أنَّ " كيف " في قوله – تعالى – : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" اسمٌ معرب مُجَرَّد عن الاستفهام ، و هي المفعول الأوّل لـــ " تر " بمعنى الكيفيّة ، مضافة إلى الفعل بعدها.(١) و الكيفيّة – و الله أعلم – تعني هيئة و صورة فعل الله بأصحاب الفيل ، أي : هيئة و صورة الإهلاك ، و هي هيئة و صورة عجيبة لمن رآها أو سمِع عنها ممّن رآها. يقول الإمامُ البقاعيّ – رحمه الله : "و لما كان للناظر في الكيفيّة من التدقيق و الوقوف على التحقيق في وجوه الدلالات على كمال علم الله وقدرته وإعزاز نبيه بالإرهاص لنبوته والتمكين لرسالته لتعظيم بلده وتشريف قومه ما ليس للناظر إلى مطلق الفعل قال : " كيف " دون أن يقول : " ما". "(٢)

و يقول العلّامة الطاهر بن عاشور – رحمه الله – : " وإيثار " كيف " دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول فلم يقل : ألم تر ما فعل ربك ، أو الذي فعل ربك ، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة."(٣)

فالسياق و هو الدَّلالة العامّة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا ، إمَّا أن يكون اقتضى التعجيب من كمال فعل الله بأصحاب الفيل و تمامه بطير صغير ضعيف ؛ فنصبت " كيف " على المصدريّة بمعنى : " أيَّ فِعْلٍ فعَلَ ربُّكَ ؟ " ، و إمَّا أن يكون اقتضى التقريرَ برؤية هيئة و صورة فعل الله بأصحاب الفيل ، فتكون "

---

(١) ينظر : حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك . تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي : ١ / ٣١٤ . ط – الأولى ، دار الفكر ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي : ٢٢ / ٢٥٠.

(٣) ينظر : التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور : ٣٠ / ٥٤٥.

كيف " اسمًا معربا مُجَرَّدا عن الاستفهام ، و هي المفعول الأوّل لـــ " تـــر " بمعـــنى الكيفيّة ، أي : الهيئة و الصورة ، و في هيئة و صورة الإهلاك دلالة ظاهرة مرئيّـــة على إهلاك هؤلاء المستقوين بأسباب الدنيا ، و هذه الدَلالة الخاصّة هي بنت الدَّلالة العامّة للغرض الرئيس لسورة الفيل.

و اصطفى السياق التعبير بالفعل " فعل " في قوله – تعالى – : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" دون الفعلين : " عمل " ، و " صنع " ، و للتعرف على سر هذا الاصطفاء نتأمّل الفرق اللغوي بين الأفعال الثلاثة. فالفعل يعني " التأثير من جهة مُؤَثِّر و هو عامٌّ لِمَا كان بإجادةٍ أو غير إجادة ، و لِمَا كان بعلم أو غير علم و قصدٍ أو غيرِ قصدٍ ، و لِمَا كان من الإنسان و الحيوان و الجمادات.[1] "أمَّا " العمل " فهو أخص من الفعل ؛ لأنَّ العمل هو كل فعل يكون من الحيوان بقصد ، بخلاف الفعل قد يُنْسَبُ إلى الحيوانات التي يقع منها فِعْلٌ بغير قصدٍ ، وقد يُنسَب إلى الجمادات.[2] و أمَّا " الصنع " فهو أخص من الفعل و العمل ؛ لأنَّ " الصنع ترتيب العمل و إحكامه على ما تقدَّم علمٌ به ، و بما يوصل إلى المُراد منه ؛ و لذلك قيل للنجار : صانع ، و لا يُقَال للتاجر : صانع ؛ لأنَّ النَّجَّار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب ، و بالأسباب التي توصل إلى المراد من ذلك ، و التاجر لا يعلم إذا اتَّجَرَ أنَّه يصل إلى ما يريده من الربح أو لا ، فالعمل لا يقتضي العلم بما يعمل له."[3] الفعل – إذن – أعمُّ من العمل و الصنع ، و هذا العموم يقتضيه الغرض الرئيس ، و المعنى الأمّ لسورة الفيل ، فالدَّلالة العامَّة على إهلاك المستقوين

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق : وائل أحمد عبد الرحمن " مادة : فعل":٣٨٤.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني " مادة : عمل " :٣٨٤.

(٣) الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد إبراهيم سليم : ١٣٥. ط – دار العلم و الثقافة

بأسباب الدنيا على الحق و منهم أصحاب الفيل ، ناسبتها الدَّلالةُ العامّةُ للفعل " فعل " ؛ لأنَّ الدلالة العامّة للفعل جمعت كلَّ عناصر صورة فعل الإهلاك الدالّ على طلاقة القدرة . و المعنى الأمُّ لسورة الفيل و هو كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل اقتضى – أيضا – عموم الفعل " فعل " ؛ لأنَّ الكيفيّة تشمل كلَّ عناصر صورة فعل الله بأصحاب الفيل المعنويّة و الحسيّة.

يقول العلّامة الطاهر بن عاشور – رحمه الله – : " و أوثر لفظ " فعل ربك " دون غيره ؛ لأنَّ مدلول هذا الفعل يعُمُّ أعمالًا كثيرة لا يدل عليها غيره ."[1] و يقول الإمام محمد الرازي فخر الدين – رحمه الله – : " لم قال : " فَعَلَ" ، و لم يقل: " جعل ، و لا خلق ، و لا عمل " ؟ الجواب : لأن " خلق " يستعمل لابتداء الفعل ، و "جعل " للكيفيات قال تعالى : { خَلَقَ السَّمَـــاوَاتِ وَ الأرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـــاتِ وَالنُّورَ }[2] و"عمل " بعد الطلب ، و " فعل " عامٌّ فكان أولى ؛ لأنَّه – تعالى – خلق الطيور ، و جعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظ البيت ، و لعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام ؛ فذكر لفظاً يشمل الكل."[3]

و اصطفى السياق التعبير بـــ " أصحاب " في قوله : " بأصحاب الفيل " دون " أرباب " ، أو " مُلَّاك " ، و إذا أنعمنا النظر في الألفاظ الثلاثة يطالعنا سرُّ الاصطفاء . فلفظ " أصحاب " جمع " الصَّحْب " ، و " الصَّحْب " جمع "الصاحب" ، و الصاحب : المُلازِم و المعاشِر.

---

(١) ينظر : التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور : ٣٠ / ٥٤٥.

(٢) سورة الأنعام : ١ .

(٣) تفسير الفخر الرازي : ٣٢ / ٩٨ . ط – الأولى ، دار الفكر ١٤٠١هـــ - ١٩٨١م.

فالصاحب – إذن – هو من كثُرت مُلازمتُه و مخالطته لِمَن يصاحبه و يعاشره إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا.[1] و جنود أبرهة ملازمون و مخالطون لفيله القويّ في السلم و الحرب ؛ فهم أصحابه. و أشار الفخر الرازي – رحمه الله – إلى لطيفة علِقت بالتعبير بـــ " أصحاب " إذ يقول : " لم قال : " بِأَصْحَـــابِ الْفِيلِ " و لم يقل : أرباب الفيل أو ملاك الفيل ؟ الجواب : لأن الصاحب يكون من الجنس، فقوله : " بِأَصْحَـــابِ الْفِيلِ " يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية و عدم الفهم و العقل ، بل فيه دقيقة ، و هي : أنه إذا حصلت المصـــاحبة بين شخصين ، فيقال : للأدون : إنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلـــى : إنـــه صاحب الأدون ؛ و لذلك يقال : لمن صحب الرسول عليه السلام : إنهم الصحابة، فقوله : " بِأَصْحَـــابِ الْفِيلِ " يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حـــالا وأدون مترلة من الفيل."[2].

و ما أفاضت به الدَّلالة اللُّغويّة للفظة " أصحاب" يبتعد عن الدَّلالة اللغويّـــة للفظتي : " أرباب و مُلَّاك " ؛ فإنَّ " أرباب " جمع " رب " و الرب : المالـــك ، فربُّ كلِّ شيء : مالكه. يقال : فُلانٌ ربُّ هذا الشيء ، أي : مِلْكُهُ له ، و كلُّ مَنْ مَلَك شيئًا فهو ربُّه ، يقال : هو ربُّ الدابّة ، و ربُّ الدار ، و هُنَّ رَبَّاتُ الحجال." و الجنود لا يملكون أنفسهم فضلا عن أن يملكوا الفيل القويَّ الذي أضيفوا إليـــه و عُرِّفُوا به ، و إنَّما مالكه هو أميرهم و قائدهم.أمَّا لفظـــة " مُلَّـــاك " فهـــي جمـــع " مالك"، و المالك هو ذو المُلك ، أي : صاحب الشيء و مالكه ، كمالك الثـــوب و مالك الدراهم ، فمعنى " مُلّاك " من وادي لفظة " أرباب " ؛ فلا يصلح إضافة " أرباب أو مُلّاك " إلى الفيل ، لأنّ للفيل مالكا واحدا ممسكا بعنانه يصـــرفه حيـــث يشاء هو الأمير.

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني " مادة : صحب " :٢٧٨. و لسان العرب لابن منظور. تحقيق : عامر أحمد حيد " مادة : صحب " : ١ / ٦٠٣، و " مادة : عشر : ٤ / ٦٦٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي : ٣٢ / ٩٨ .

السياق – إذن – اصطفى لفظة " أصحاب " دون لفظتي " أرباب و مُلَّاك " لكونها صاحبة المعنى المناسب ، و هو كثرة ملازمة و مخالطة الجنود في السلم و الحرب لهذا الفيل القويّ. و لا يخفى أنّ طول الملازمة كان عقب التعرف على قوة هذا الفيل ، هذه القوة التي جعلته سببًا رئيسًا للاستقواء به في المعارك ، ممَّا أطال ملازمة الجنود له للاستقواء به في معاركهم ، فالاستقواء به صار شيئًا فطريًّا مركوزًا في طباعهم؛ و لذلك عندما عملت قدرة الله في طباع .

صاحبهم " الفيل " و عطّلتها عن التوجه نحو الكعبة المشرّفة ، استحضرت نفوسهم الخزي و الخذلان و الهزيمة و الانكسار ، و هذا ما أشار إليه الغرض الرئيس لسورة الفيل و هو الدلالة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا ، فقد خذلهم فيلهم مؤذنًا بهلاكهم الذي سرعان ما أكّدته أسراب الطير المرسلة ترميهم بحجارة من سجيل.

و لا يخفى الترابط القويّ بين تغير طبع الفيل و عدم استجابته لرغبة أصحابه ، و المعنى الأمّ المتمثّل في كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ؛ لأنَّ تغيّر طبع الفيل جزء ركين في الصورة العاكسة لكيفيّة فعل الله.(١)

و إذا تأمّلنا الألفاظ التي اصطفاها السياق داخل التركيب : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، نجد التناغم بين معاني الألفاظ و التعانق ، فكلّ لفظة تعانق أختها في تآلف معجز، فالفعل " فعل " بعموميّته جمع عناصر الصورة التي شكّلت كيفيّة الفعل المقرَّر برؤيتها الرؤية الواضحة المكتملة " الطير ، و الإنسان ، و الحيوان ، و الجماد " ، فالطير تحلّق فوق أصحاب الفيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، و الفيل تعطّل طبعه المُعْتاد عليه ؛ فلم يستجب لرغبة أصحابه الذين استقووا به.

---

(١) ينظر : تاج العروس للزبيدي. تحقيق : على هِلالي " مادة : رب " : ٢ / ٤٥٩ ، ٤٦١. ط – الثانية ، مطبعة حكومة الكويت ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م. و مقاييس اللغة لابن فارس " مادة : رب ": ٢ / ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣. و لسان العرب لابن منظور. تحقيق : عامر أحمد حيد " مادة : رب " : ١/ ٤٦٦، و " مادة : ملك " : ١٠ / ٥٩٤ ، ٥٩٥.

و اصطفى السياق الفعل " جعل " في قوله – تعالى – : " أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ " و " فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ" دون الفعل " صيّر ".

و إذا تأمّلنا الفعلين : " جعل " ، و " صَيَّر " ، نجد أنّهما يدلان على الحالة التي يصير و ينتهي إليها الشيء إلّا أنَّ الفعل " جعل " أعمّ. يقول الراغب : " " جعل " لفظ عامٌّ في الأفعال كلِّها ، و هو أعمّ من " فعل ، و صنع ، و سائر أخواتها". "[1] فيأتي بمعنى " وضع " ، و " صنع " ، و " صيّر " ، و " ظنّ " ، و " أقبل " ، و " أخذ " ، و " عمل " ، و " هَيَّأ " ، و " خلق " ، و " أوجد ".

تقول : جعل الشيءَ يجعله جعْلًا : وضعه ، و جعل الشيءَ جعْلًا : صنعه ، و جعل الطين خزفًا : صيّره. و يدلّ " جعل " – أيضًا – على اتصال الحدث الذي انتقل و انتهى إليه الشيء ، و أنَّه لم يحدث دفعة واحدة ، و إنَّما تدرَّج شيئا فشيئا ؛ و لذلك جعل طرفا للفعل فتستفتح به ، كقولك : جعل يقول ، و جعل ينشد ، قال الشاعر :

فاجْعَلْ تحِلَّكَ مِنْ يَمِينِكَ إنَّمَا ... حِنْثُ اليَمِينِ على الأثِيمِ الفَاجِرِ

فدلَّ على تَحَلُّلٍ شيئًا بعد شيءٍ.[2]

و هذا بخلاف الفعل " صيّر " ، فإنَّ مادته مُفرغة من هذا العموم و تلك الدَّلالة على اتّصَال الحدث ، فـ " الصاد و الياء و الراء أصل صحيح ، و هو المآل و المرجع."[3] فعموميّة الفعل " جعل " و دلالته على اتّصال الحدث ناسبت – إذن– كيد أصحاب الفيل ، و كونهم كعصف مأكول ؛ لأنَّ الكيد كان منهم

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني " مادة : جعل " :١٠١.

(٢) الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري : ١٣٦. و لسان العرب لابن منظور " مادة : جعل " : ١١/ ١٣٢. و الوجوه و النظائر لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد عثمان : ١٥٩. ط – الأولى ، مكتبة الثقافة الدينيّة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

(٣) ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : صير " : ٣ / ٣٢٥.

جميعا، لم يختص ببعضهم دون بعض ، و كذلك صيرورتهم كعصف مأكول كان لجميعهم ، لم يغادر منهم أحدًا. و دلالة " الجعل " على اتصال الحدث ناسبت صيرورة كيدهم إلى الهلاك و الضياع ، فكيدهم صار إلى الهلاك و الضياع تدريجيًّا شيئًا بعد شيء بفعل الله بهم ، و كذلك صيرورتهم كعصف مأكول.

و لا يخفى أنَّ الفعل " جعل " بعموميّته جاء مبيّنًا للجانب المعنويّ لكيفيّة الفعل العامّ المُجملة المُقَرّر برؤيتها في قوله : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، و كذلك جاء مبيّنًا و مؤكّدًا للغرض الرئيس و هو الدلالة العامّة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا.

يقول الإمام البقاعي – رحمه الله – : " و لّما قرّره بالكيفيّة تنبيها على ما فيها من وجوه الدَّلالة على مقدّمات الرسالة ، أشار إلى تلك الوجوه مقدِّمًا عليها تقريرًا آخر جامعًا لقصتهم و مُعْلِمًا بغصّتهم ، فقال : " ألم يجعل ". "[1]

و إذا تأمّلنا اصطفاء السياق للفعل " أرسل" دون " بعث " في قوله – تعالى-: " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ " ، نجد أنَّ الفعلين يشتركان في معنى الإرسال ، و لكن الفعل " أرسل " أخصُّ في الإرسال من الفعل " بعث " ؛ لأنَّه يقتضي تحميلَ رسالةٍ للمُرْسَلِ إليه ، و يُستَعمل فيما يعقل و ما لا يعقل. و هذا بخلاف الفعل " بعث" لا يقتضي تحميل رسالة إلى المُرْسَلِ إليه ، و يستعمل فيما يعقل دون ما لا يعقل ، تقول: بعثتُ فلانًا بكتابي ، و لا يجوز أن تقول : بعثتُ كتابي إليك.[2]

و لّما كانت حادثةُ أصحاب الفيل حادثةً خاصّةً بهم ، و كان المُرْسَلُ و هو " الطير " لا يعقل ، و قد اقتضى إرسالُه حملَ رسالة إهلاك و تدمير لأصحاب الفيل ، ناسبه ذلك التعبير بالفعل الأخص في الإرسال و هو " أرسل " دون " بعث ".

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي : ٢٢ / ٢٥٥.

(٢) ينظر : الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري : ٢٦٨.

جاء في مِلاك التأويل : " أنَّ " أرسل " أخصُّ في باب الإرسال من البعث ، إذ لا يُقَال : أرسل إلّا فيما كان توجيهًا فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازاً ، أمَّا " بعث " فأوسع ، فإنَّه يقع بمعنى الإرسال و بمعنى الإحياء ، و منه البعث الأخراوي ، ففيه اشتراك ، فلما كان الإرسال أخص وقع الإخبار به."[1] يُضاف إلى هذا معنى السهولة و التتابع في مادة " رسل " ، يُقَال : ناقة رِسْلَة : سَهْلَةُ السَّيْر ، و إِبِلٌ مَرَاسيل : مُنْبَعِثَةٌ انبعاثًا سهلا. و الرِّسْل من الإبل و الغنم ما يسترسل في السير، يُقال : جاءوا أرْسالاً ، أي: مُتَتَابعين. و الرِّسْل : اللبن الكثير المتتابع الدر.[2]

و كيفيّة فعل الله المُقرّر برؤيتها تقتضي المعاني العالقة بجذر مادة الفعل "أرسل" من الاختصاص بالإرسال ، و اليسر و السهولة في الإرسال ، و اليسر و السهولة في طيران و تتابع هذا الطير المُرسَل في جماعات لأداء ما حُمِّل من رسالة إلى المُرسَل إليهم ، فهذه المعاني العالقة بجذر مادة الفعل " أرسل " دون " بعث " تتناسب مع كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، فهي كيفيّة دالّة على طلاقة القدرة التي اختصّت طيرا صغيرا ضعيفا للقيام بمهمّة إهلاك جيش عظيم كجيش أبرهة.

و اصطفى السياق التعبير بـ " أبابيل " دون " جماعات " في قوله: " وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ"، و سر هذا الاصطفاء – و الله أعلم – غزارة المعاني التي تدور حولها مادة " أبل " ، فإنَّها تأتي بمعنى الحِذْق و المهارة ، تقول : أَبِل يَأْبَلُ أَبَلًا فهو آبِلٌ و أَبِلٌ : حَذَقَ مَصْلَحَةَ الإِبِلِ و الشَّاءِ. و تأتي بمعنى الكثرة ، يُقَال : أَبَّل الرجلُ : كَثُرَت إِبِلُه فهو مُؤَبِّل . و تأتي بمعنى التفخيم و التعظيم ، يُقَال : فُلانٌ يُؤَبِّلُ على فُلانٍ : إذا كان يُكَثِّرُ عليه ، أي : يظهر العظمة. و تأتي بمعنى التتابع ، و بمعنى الغلبة ، يقال : أَبَل الرجلُ يَأْبِلُ أَبْلًا : إذا غلب. و تأتي بمعنى القطعة من الطير و

(١) مِلاك التأويل للغرناطيّ . تحقيق : عبد الغني محمد علي : ١ / ٢١٦. ط – دار الكتب العلميّة.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني " مادة : رسل " :٢٠١ ، ٢٠٢..

الخيل و الإبل . و تأتي بمعنى الجماعة ، و تأتي بمعنى الثِّقَل ، يُقَال : ذَهَبَتْ عنه أَبلَتُهُ ، أي : ثِقَلُهُ. و تأتي بمعنى العداوة.(١)

و كل هذه المعاني التي دارت حولها مادة " أبل " لائطة بالطير المُرْسَل ، فقد أرسل جماعات أو أقاطيع ، متتابعة ، كثيرة ، عظيمة ، مثقلة بما تحمله من حجارة، معادية أصحاب الفيل ، غالبة منتصرة بإذن الله. فهذه المعاني المجتمعة في الطير المرسل لا تقوم بها إلّا مادة " أبل " بخلاف " جمع " فإنَّ " الجيم و الميم و العين أصل واحد يدُلُّ على تَضَامِّ الشيء. يُقَال : جَمَعْتُ الشيءَ جَمْعًا."(٢)

هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى أنَّ الطير المُرْسَل من نوع خاصٍّ ، و ليس طيرًا عاديًّا ، فاختير له النعت " أبابيل " المشتق من مادة " أبل " التي خصَّصَها العرب بمشتقاتها لأفضل أنعامهم و هي الإبل ، جاء في المقاييس : " و إبل مُؤَبَّلة : جُعِلت قطيعاً قطيعا، وذلك نعتٌ في الإبل خاصّة ... و أَبَّل الرّجلُ : كَثُرت إبِلُهُ فهو مُؤبِّل ، و مالٌ مؤبَّل في الإبل خاصّة، وهو كثرتها و ركوبُ بعضِها بعضاً."(٣)

يُضاف إلى هذا خصوصيّة الحادثة ، فهي حادثة خاصّة بأصحاب الفيل ؛ فاختير للطير النعت الأخص " أبابيل " دون " جماعات " لكل ما سبق . و هذا الاصطفاء يتناسب مع اصطفاء الفعل " أرسل " الأخص في الإرسال دون " بعث ". فالتعانق بين ألفاظ التركيب:" أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ" بيّنٌ ، فالفعل الأخص في الإرسال اختص بطير من نوع خاص منعوت بصفة خاصة. و الطير المُرْسَل المنعوت

---

(١) ينظر : مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : أبل " : ١ / ٣٩:٤٣ و المحكم و المحيط الأعظم لابن سيده. تحقيق : د / عبد الحميد هنداوي : ١٠ / ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١. ط – الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤٢١ ه – ٢٠٠٠م. و لسان العرب " مادة : أبل " : ١١/ ٣ : ٨.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : جمع " : ١ / ٤٧٩ .

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون " مادة : أبل" : ١ / ٣٩ ، ٤٠ .

بهذا النعت الجامع " أبابيل " أبان كثيرًا عن كيفيّة الفعل المُقَرَّر برؤيتها في قوله – تعالى- : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ"، و حمل الدَّلالة الواضحة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا.

و إذا تأملنا سر اصطفاء السياق " للرمي " دون " القذف " في قوله – تعالى- :" تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ " ، نجد أنَّ " الرمي " يكون من مكان قريب ، و شاملٌ للأعيان كالسهم و الحجر و غيرهما ، و للمعاني كالرمي بالذنب و الشتم ، فهو أخص في نبذ الشيء و طرحه سواء كان حسيًّا أو معنويًّا من " القذف" ؛ لأنَّ القذف يكون من مكان بعيد ، و يكون – غالبًا – للمعاني دون الأعيان. يقول الراغب : " الرمي يُقال : في الأعْيَان كالسَّهْم و الحَجَر ، نحو : { و ما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ و لكِنَّ اللهَ رَمَى}، و يقال في المَقَال كناية عن الشَّتْم كالقَذْف ، نحو : { والذين يَرْمون أزواجَهم }... " القذف " : الرمي البعيد و لاعتبار البُعْد فيه قيل: منزِلٌ قَذَفٌ و قَذِيفٌ و بَلْدَةٌ قَذُوفٌ : بعيدة ... و استعير القذف للشتم والعيب كما استُعِير الرمي."[1]

و إذا أمعنا النظر في مادة الفعلين " رمى " ، و " قذف " في القرآن الكريم ، نجد أنَّ الرمي يُقَال في الأعيان و المعاني من مكان قريب. يقول الله – سبحانه و تعالى – : { و مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } ، { إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}[2] { تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ }[3] ، { وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا }[4]، { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ }[5]، { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني " مادة : رمى " :٢٠٩، و " مادة : قذف " : ٣٩٨.

(٢) سورة المرسلات :٣٢.

(٣) سورة الفيل : ٤.

(٤) سورة النساء : ١١٢.

(٥) سورة النور : ٤.

أَزْوَاجَهُمْ}[1]، { إِنَّ الّذينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ}[2]، فرمي ما كان في يد النبيّ – صلَّى الله عليه و سلَّم – و الشرر ، و الحجارة ، كل أولئك أعيان ، و رميها من قريب . و رمي البرئ بذنب الرامي ، و سب و شتم المحصنات و الأزواج كلُّها معانٍ ، و رميها – أيضا – من قريب.

و هذا بخلاف القذف فإنَّه جاء – غالبًا – في المعاني دون الأعيان ، و من مكان بعيد ، يقول الله – سبحانه و تعالى – : { وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ }[3] ، { فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}[4] ، { وَ لَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا}[5] ، { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}[6]، { قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَمُ الْغُيُوبِ }[7] { وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ من مكان بعيد}[8] ، { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ }[9] ، { لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ }[10].

فالرعب ، و الأوزار ، و الحق ، و الغيب ، و القذف المُوحَى به إلى أمّ موسى، كلُّها معانٍ يُقْذَف بها من مكان بعيد ، وكذلك قذف الجن المُسترق السمعَ من السماء ، و إن كان محسوساً إلّا أنّه يعجز البشر عن إدراكه حسًّا ؛ ممّا يلحقه – و الله أعلم – بالمعاني.

فالرمي – إذن – أخصُّ في الدَّلالة على النبذ و الطرح في الأعيان و المعاني من قريب دون " القذف ". و إذا تأمّلنا الرمي في قوله – تعالى – : " ترميهم بحجارة

---

(١) سورة النور : ٦.
(٢) سورة النور : ٢٣.
(٣) سورة الأحزاب :٢٦.
(٤) سورة الحشر: ٢.
(٥) سورة طه : ٨٧.
(٦) سورة الأنبياء : ١٨.
(٧) سورة سبأ : ٤٨.
(٨) سورة سبأ : ٥٣.
(٩) سورة طه : ٣٩.
(١٠) سورة الصافات : ٨.

من سجيل " ، نجد أنّ رمي الحجارة من الطير كان قريبًا من المَرْمِيِّ " أصحاب الفيل " و من أعلى ، و الرمي القريب من أعلى لا يقتضي احتشادا للقوة عند الرامي " الطير " ، كما يفعل قاذف الشيء من مكان بعيد، فإنَّه يحتشد لرميه و يستجمع كلَّ قوّته ؛ و لذلك كان رمي الحجارة سهلا ، و هذه السهولة و اليسر في إهلاك أصحاب الفيل تتناسب مع طلاقة القدرة ، التي نبَّأت عنها كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، و لا يخفى أنَّ اختصاص الفعل " ترميهم " برمي الأعيان كالحجارة من قريب ، يتناسب مع اختصاص الفعل " أرسل " بالإرسال " ، و يتناسب مع نعت الطير بنعت خاصٍّ " أبابيل " ، فالأمر جِدُّ خاصٍّ ، فاصطُفِي له ما هو خاصٌّ في معناه ، و هذا الاصطفاء مرجعه طلاقة القدرة التي أتت بفعل معجز واقعاً و بلاغة.

المبحث الثاني

أثر السياق في اصطفاء صورة المعنى البلاغيّ

المبحث الثاني

أثر السياق في اصطفاء صورة المعنى البلاغيّ

صورة المعنى هي مجموعة العناصر التي تتكون منها الجملة ، فقولك : لقِيتُه غاضبًا ، يختلف في شكل معناه عن قولك : لقِيتُه ، و كذلك : لقيتُه في مكان كذا أو ساعة كذا ، إلى آخر هذه القيود التي هي عند التأمّل صورة للمعنى. فالتراكيب ليست إلا أبنية صوتيّة تعكس صورة فكر الإنسان و شعوره.(١) و العناصر التي تتكون منها الجملة نوعان : الأوّل : عناصر نحويّة " معاني النحو الوظيفيّة " ، و الآخر : عناصر معنويّة ، و هي العناصر القائمة بين معاني الكلم في بناء الجملة. فنظم الألفاظ الدَّالة على المعنى مرتبة على حسب الأغراض و المعاني التي يُقَال لها الكلام نظمًا نحويًّا ، يكشف لنا صورة المعنى البلاغيّ الذي اقتضاه السياق، فمهمّة النحو الوظيفيّة هي الكشف عن صورة المعنى و ليس ترتيبه ، فقد يحدث تقديم و تأخير بين مكونات النحو الوظيفيّة، كتأخير المفعول على الفاعل و تأخير متعلّقات الفعل عليه،و لا يؤثر نحويًّا،حيث تبقى الوظائف النحويّة كما هي، و إنَّما يؤثر على صورة المعنى الذي اقتضاه السياق؛ فتوخّي معاني النحو فيما بين معاني الكلم ليس مطلقًا، وإنّما بما يقتضيه السياق.(٢)

---

(١) ينظر : دلالات التراكيب. د / محمد محمد أبو موسى : ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٥. ط- الرابعة ، مكتبة وهبة ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م.

(٢) هذا الكلام مُفَاد من بحث للأستاذ الدكتور / محمود توفيق سعد ، بعنوان : " مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي مراجعات منهجيّة " ، و ذكر أنَّ مستويات بناء صورة المعنى أربعة مستويات : المستوى الأوّل : النظم : و هو توخّي معاني النحو فيما بين معاني الكلم في بناء الجملة على حسب الأغراض و المعاني التي يُقَال لها الكلام. المستوى الثاني : الترتيب : و هو توخّي ما يكون بين معاني الجُمَل من علاقات غير الإعرابيّة ، أي : ما يكون بين المعاني الجزئية القائمة في كل جملة في بناء الصورة الكليّة على حسب الأغراض و المعاني التي يُقَال لها الكلام. المستوى الثالث : التأليف : و هو علاقة تقوم بين مكوّنات المَعْقِد أو الفصل ، فالتأليف هو توخّي ما يكون بين معاني الفِقَر من علاقات في بناء المَعْقِد على حسب الغرض المرحليّ الذي يُقَال له الكلام. المستوى الرابع : التركيب : و هو توخّي ما يكون بين معاني المعاقد ، أي : الأغراض المرحليّة الجزئية للمعقد ، من علاقة في بناء النص. ينظر : مجلة (جذور) العدد (٣٢) بتاريخ ١ / سبتمبر / ٢٠١٢م : صـ ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥،١٥٧ ، ١٦٣.

السياق – إذن – هو الذي يصطفي العناصر اللفظيّة المُكَوّنة لمعنى الجملة ، و ينطقها ببلاغتها التي اقتضاها و ارتضاها لها داخلَ تركيبها. فصورة المعنى البلاغيّ هي نتاج العناصر اللفظيّة التي نُظِمت نظمًا نحويًّا مرتَّبة معنىً وفقَ مقتضى السياق. و سنتعرّف في هذا المبحث على صورة المعنى البلاغيّ التي اصطفاها السياق ، و البدء بالتعرف على صورة المعنى البلاغيّ في قوله – تعالى – :" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ " ، بدأ المعنى البلاغيّ في الآية الكريمة بالاستفهام التقريريّ : " ألم تر ... " ، و التقرير – هنا – هو تقرير المخاطب بما يعلمه من مضمون الحكم إيجابًا أو سلبًا ، فالمُقَرَّر به في هذا الاستفهام ليس ما يلي الهمزة و هو نفي الرؤية، و إنَّما هو ما يعلمه المُخَاطب من مضمون الحكم ، فقد تكون الجملة مثبتة و التقرير بالنفي ، كقوله – تعالى – : { وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ }[1]، فالمراد – و الله أعلم – التقرير بما يعرفه من أنَّه لم يقل لهم هذا ، و ليس المراد التقرير بما دخلت عليه الهمزة ؛ لأنَّه – صلوات الله عليه – لم يقل ذلك.[2] و قد تكون الجملة منفيّة و التقرير بالإثبات ، كما في قوله – تعالى –:" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ " فالمقَرّر به في الآية الكريمة هو ما يعرفه المخاطب من مضمون الحكم المذكور ، و ليس ما يلي الهمزة من نفي الرؤية. فالجملة : " ألم تر ... " منفيّة و التقرير بالإثبات ، أي : أنَّه – صلَّى الله عليه و سلم – رأى ، أي : علم بواقعة أصحاب الفيل ، و ما فعله الله بهم علماً لا يشوبه ريب ؛ و لذلك استعار الرؤية للعلم الحاصل بالتواتر و مشاهدة الآثار ، فشبه العلم الحاصل بالتواتر و مشاهدة الآثار بالرؤية و هي المشاهدة بالبصر، و إنَّما لم يعبر بالعلم ، و استعار له الرؤية البصريّة ؛ لأنَّ الحمل على المجاز مبالغة في

---

(١) سورة المائدة : ١١٦.

(٢) دلالات التراكيب . د / محمد محمد أبو موسى : ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، بتصرف.

تحقق العلم بتلك الواقعة،[1] و في تعريف المسند إليه " ربّك " بالإضافة إلى ضمير المخاطب النبيّ – صلَّى الله عليه و سلم – إيماء إلى أنَّ المقصود من التذكير بهذه القصة هو تسلية النبيّ – صلَّى الله عليه و سلم – عمّا يلاقيه من أذى المشركين ؛ و ذلك لما في هذه القصّة من دلالة على طلاقة القدرة ، و أنَّ الله غالب على أمره و قادر على نصر نبيه. و في التعريف – أيضاً – تعريض بحقارة الأصنام التي سمّوْها أربابًا لهم.[2]

و تعريف الفيل بـ " أل " التي للعهد[3] مؤذن بأنَّ الفيل مألوف و معروف لدى القادة و الجند لفرط قوّته التي اشتُهِر بها . فالفيل كان سببًا رئيسًا من أسباب الاستقواء ، تتعلّق به قلوب الجند و القادة لتحقيق رغبتهم في النصر ؛ و لذلك عُرِّفُوا بالإضافة إليه " بأصحاب الفيل " ، فهو الآلة الحيّة المُدَمِّرة التي لا يقف أمامها إنسان أو جماد ، و لتأكيد شدة تعلّق القادة و الجند بالسبب الرئيس للاستقواء " الفيل " نُعِتُوا بأنَّهم أصحابه ملازمون له في الحرب لا يفارقهم و لا يفارقونه. جاء في تفسير البَغَوي : " وُحِّدَ الفيلُ ؛ لأنّه نسبهم إلى الفيل الأعظم. و قيل : لِوِفَاق رؤوس الآي."[4]

و أرى السياق ينقض القول بأنَّ الفيل وُحِّدَ لِوِفَاق رؤوس الآي ؛ لانَّ الغرضَ الرئيس هو الدَّلالةُ على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا على الحق ، و الفيل الذي اشتُهِر بقوّته كان سببًا رئيسًا للاستقواء. يُضاف إلى هذا أنَّ الفيل عنصر أساسيّ من عناصر المعنى الأمّ و هو كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل المقَرَّر برؤيتها ، فقد عطَّل الله – سبحانه – طباع الفيل التي ألفها و ألفها منه أصحابه ، فكان يمتنع إذا وجّهوه

---

(١) ينظر: حاشية القُونَويّ على تفسير البيضاويّ و معه حاشية ابن التمجيد. تحقيق : عبد الله محمود محمد عمر : ٢٠ / ٤٣٦. ط- الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤٢٢ه – ٢٠٠١م.

(٢) ينظر : التحرير و التنوير : ٣٠ / ٥٤٥ ، ٥٤٦. و نظم الدرر : ٢٢ / ٢٥١.

(٣) ينظر : التحرير و التنوير : ٣٠ / ٥٤٧.

(٤) تفسير البَغَوي للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البَغَوي. تحقيق : محمد عبد الله ، و عثمان جمعة، و سليمان مسلم: ٨ / ٥٤٠. ط – دار طيبة – الرياض ١٤١٢ه.

نحوّ الكعبَة ، و إذا وجّهوه إلى غيرها استجاب و هـــرول. فهـــذا الفيـــل القـــويُّ المُستَقْوَى به ، المُعَطَّلة قوّتُه أحد عناصر الصورة " الكيفيّة " المُقَرَّر برؤيتها.

و إذا تأمّلنا عناصر المعنى البلاغيّ في قوله – تعالى – : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَـــلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ " من الاستفهام التقريري ، و الاستعارة ، و تعريف المسند إليه بالإضافة ، و تعريف الفيل بـــ " أل " العهديّة ، نجد أنَّ هذه العناصر جميعهـــا انتظمت في سلك توضيح و تأكيد و تقرير الغرض الرئيس لسورة الفيـــل و هـــو الدَّلالة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا ؛ لأنَّ التقرير برؤية مســـتعارة للعلـــم اليقيني من صميم توضيح و تأكيد و تقرير الغرض الرئيس ؛ لأنَّ من يعلـــم علمًـــا يقينيًّا بكيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل يدرك بهذا العلم الدَّلالة الواضحة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا.و لَّما كان العلم اليقيني مؤذنًا بإدراك النبي– صلَّى الله عليه و سلّم – هذه الدَّلالةَ ؛ جاء تعريف المسند إليه " ربّك " بالإضافة تســـلية للـــنبيّ – صلَّى الله عليه و سلّم – و إدخال السكينة و الطمأنينة على قلبـــه. و ختمـــت عناصر المعنى البلاغيّ بتعريف الفيل بـــ"أل" العهديّة إيذانًا بتميزه بالقوة تميزاً جعلـــه سببًا رئيسًا للاستقواء. و هكذا تعانقت عناصر المعنى البلاغيّ و ذابـــت في بوتقـــة الغرض الرئيس و المعنى الأمّ لسورة الفيل ، كاشفة عن البلاغة العالية للنظم القرآنيّ.

و إذا انتقلنا إلى التعرف على صورة المعنى البلاغيّ في قوله : " أَلَـــمْ يَجْعَـــلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ" ، نجد أنَّه بدأ باستفهام تقريري على نهج صورة المعنى البلاغـــيّ في الآية السابقة ، فهو امتداد لها و متفرع منها ؛ لتأكيدها و توضـــيحها ، فهـــذه الجملة شيء من البيان لما في جملة : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيـــلِ ؟ " كأنَّه قيل : قد جعل كيدهم في تعطيل الكعبة و تخريبها في تضييع و إبطـــال بـــأن دمّرهم أشنع تدمير.(١)

---

(١) ينظر : التحرير و التنوير : ٣٠ / ٥٤٨. و تفسير أبي السعود : ٩ / ٢٠١. ط – دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت – لبنان.

و نتأمّل استعارة الحرف " في " التي للظرفيّة في قوله : " في تضليل "[1] نجد أنَّه شبّه التضليل بمعنى التضييع و الإبطال بالظرف " الوعاء " بجامع الإحاطة و الشمول، فالضياع و الإبطال يحيط و يشمل كلَّ كيدهم، لا يغادر منه صغيرة و لا كبيرة. فالاستعارة – هنا – من رحم عموم الفعل " فعل " في قوله : " ألم تر كيف فعل ربك ... " ، و مبيّنة للجانب المعنويّ لكيفيّة الفعل .

و تتمدد صورة المعنى البلاغيّ لتوضيح الجانب المعنويّ في قوله – تعالى – : " أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ" بشكل حسيّ في قوله – تعالى – : { وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ } ، ليتعاضد الجانبان : المعنويّ و الحسيّ في إماطة اللثام عن المعنى الأمّ لسورة الفيل ، و هو كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، هذه الكيفيّة الدّالة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا ، و هو الغرض الرئيس للسورة.

و تبدأ صورة المعنى البلاغيّ بتعدية الإرسال بـ"على" خلاف الشائع من تعديته بـ"إلى"،وتقديم هذا الجار و مجروره على المفعول في قوله – تعالى – : " وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ "؛ للتنبيه على أنَّه إرسال خاصّ بأصحاب الفيل ؛ لإلحاق الضرر بهم ، فالطير مُرسَلة بحجارة الموت و الهلاك.[2] و تنكير " طير " قد يكون للتحقير أو التعظيم أو النوعيّة . فالتحقير كامن في أنَّ الإهلاك كان بأضعف جنوده – تعالى – و في هذا تعجيب من صنعه و طلاقة قدرته. و التعظيم كامن في أنَّ هذا الطير قامت بعمل ليس من عادتها و طبيعتها ، و هو القتل برمي الحجارة رميًا لا يُخطئ. و الأرجح – و الله أعلم – أن يكون التنكير للنوعيّة ، فهي طير من نوع خاصّ لم يعرفه العرب ، كُلّف بمهمّة خاصّة ؛ و لذلك نُظِم في سلكه الألفاظ

---

(١) " الضاد و اللام أصل صحيح يدلُّ على معنى واحد ، و هو ضياع الشيء و ذهابُه في غير حقِّه." مقاييس اللغة " مادة : ضلّ " : ٣ / ٣٥٦.

(٢) ينظر : حاشية القُونَويّ على تفسير البيضاويّ : ٢٠ / ٤٤٠.

الأخصُّ في معناها ، حيث وقع عليه " الإرسال " دون " البعث " ، و نُعِت بـــ " الأبابيل " دون " الجماعات " ، و " الرمي " دون " القذف " ، يُضاف إلى هذا تقدّم الجار و المجرور " عليهم " للتنبيه على أهمية الإرسال و خصوصيّته ، و أنّه للإضرار و الإهلاك.(١)

و صِيغ الرمي بصيغة المضارع في قوله – تعالى – :" تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ " لاستحضار هذه الصورة العجيبة للطير الغريب المُرْسَل بحجارة قاتلة ، و هو يحلّق فوق رؤوس أصحاب الفيل يرميهم رميًا غير خاطئ ، فيهلكهم هلاكًا محقّقًا. فصيغة المضارع أحضرت إلى خيال السامع هذه الصورة العجيبة كأنّه يراها.(٢) و هذا الإحضار لهذه الصورة العجيبة يتناسب مع الرؤية المستعارة للعلم في الاستفهام التقريري : " ألم تر كيف فعل ربك ... " ، و يكشف عن الجانب الحسيّ لكيفيّة الفعل المقرّر برؤيتها ، و يتعانق مع الغرض الرئيس لسورة الفيل حيث دلالة هذه الصورة العجيبة على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا و منهم أصحاب الفيل. و تجدد صورة الرمي يتناسب مع وصف الطير بـ " أبابيل " ، أي : جماعات أو أقاطيع متتابعة.

و قد اكتملت صورة المعنى البلاغي لهذه الصورة الحسية المشاهدة " الجانب الحسي لكيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل " بالتشبيه المُنْبِئ عن نهاية مُفْجعة لأصحاب الفيل في قوله – تعالى – : " فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ " ، أي : كتبن أكلته الدواب و راثته ، و المُراد : كرَوْثٍ ، إلّا أنَّ المعنى لم يُذْكَر بهذا اللفظ لهُجْنته ، فجاء على الآداب القرآنيّة ، فشبّه تقطّع و تفرّق أجزاء أجسادهم بعد رميهم بالحجارة ،

---

(١) ينظر : تفسير الفخر الرازي : ٣٢ / ٩٩. و التحرير و التنوير : ٣٠ / ٥٤٩. و البحر المحيط لأبي حيان : ٨ / ٥١١.

(٢) ينظر:التحرير و التنوير:٣٠ / ٥٥٠. و روح المعاني للألوسي:٣٠ / ٢٣٧. ط- دار إحياء التراث.

بتقطّع و تفرّق أجزاء الرَّوْث. و في هذه الصورة التشبيهيّة تشويه لحالهم ، حيث تناثرت و تفرّقت أشلاء أجسادهم ، تحمل آثار الهلاك و رائحته الكريهة ، لا يلتفت إليها أحد ليجمعها و يدفنها.و قد تصدّرت بنية التشبيه"الفاء" المؤذنة بسرعة هلاكهم ، فهلاكهم كان عقب نزول الحجارة عليهم دون تأخير ، فالفاء تذهب بالذهن إلى القوة التدميريّة الهائلة الكائنة في الحجر الصغير، و التي تُقَطّع الجسد أشلاء عقب نزول الحجر عليه دون تأخير.(١)

و العناصر البلاغيّة التي شكّلت صورة المعنى البلاغيّ من تقديم الجار و المجرور على المفعول و تنكير " طير" في قوله : " و أرسل عليهم طيرًا " ، و التعبير عن الرمي بصيغة المضارع : " ترميهم " و التشبيه : " فجعلهم كعصف مأكول " ، هذه العناصر أبانت عن الجانب الحسي لكيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل إبانة دالّة على طلاقة القدرة التي لا يعجزها استقواء أيِّ مستقوٍ بأسباب الدنيا.

و قد أشار الإمام البقاعيّ – رحمه الله – إلى انتظام الآيات الثلاث في سلك المعنى الأمّ ، و هو كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، حيث بيّنت الآيات الثلاث الجانب الحسيّ لهذه الكيفيّة ، يقول : " و هذا الإهلاك في إعجابه هو من معاني الاستفهام التقريري في أوّلها ، فقد تعانق طرفاها ، و التفّ أُخراها بأُولاها."(٢)

---

(١) ينظر : تفسير الفخر الرازي : ٣٢ / ١٠١. و روح المعاني للألوسي : ٣٠ / ٢٣٧. و البحر المحيط لأبي حيان : ٨ / ٥١٢. و الكشاف للزمخشري. تحقيق : الشيخين : عادل أحمد عبد الموجود ، و علي محمد معوض : ٦ / ٤٣٤. ط- الأولى ، مكتبة العبيكان – الرياض ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

(٢) ينظر : نظم الدرر : ٢٢ / ٢٥٨.

الخاتمة

١ – كان للسياق أثرٌ في اصطفاء الألفاظ و التراكيب لسورة الفيل ، فقد وردت في سياق الدَّلالة على إهلاك المُستَقْوِين بأسباب الدنيا ؛ و لذلك بدأت بالاستفهام التقريريّ برؤية كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ؛ لأنها الدليل على إهلاك المستقوين بأسباب الدنيا ، و منهم أصحابُ الفيل ، و من ثمَّ اصطفى السياق لبيان هذه الكيفيّة الألفاظَ الأخصَّ و الأبرز في معناها المشارك لها فيه لفظٌ آخر ، كاصطفاء الفعل : "أرسل " دون " بعث " ، و النعت بـ" أبابيل" دون " جماعات"، و بـ " الرمي " دون " القذف " ، فإنَّ في هذه الألفاظ المُصْطَفاة من وضوح الدَّلالة على المعنى و اختصاصها به دون غيرها كشفًا و إبانةً عن كيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل الدَّالّة على طلاقة القدرة.

٢- بدتْ الآيات الخمس لسورة الفيل كأنَّها صورة لمعنى بلاغيّ واحد انتظم في آية واحدة ، تُعانِقُ كلُّ لفظة فيها أختَهَا ، حيث أُرْدِفَ الاستفهامُ التقريريُّ الأوّل : " ألم تر ... " باستفهام تقريريٍّ آخر مبنيّ عليه و متفرِّع منه:" ألم يجعل كيدهم..." ، و هذا التفريع جاء لتوضيح الجانب المعنويّ لكيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل المُقَرَّرِ برؤيتها في الاستفهام التقريريّ الأوّل . فصورة المعنى البلاغيّ في الآية الثانية : " ألم يجعل ... " هي صورة فرعيّة مبنيّة على صورة المعنى البلاغيّ في الآية الأولى : " ألم تر ... " ، ثم تفرّعت من الصورة الفرعيّة أخرى في الآيات الثلاث الباقية : " و أرسل ... " كاشفةً عن الجانب الحسي لكيفيّة فعل الله بأصحاب الفيل ، و مقرِّرةً الجانبَ المعنويَّ للصورة الفرعيّة المتفرِّعة عنها و هى : " ألم يجعل كيدهم في تضليل "، و هكذا بدتْ الآياتُ الخمسُ لسورة الفيل كأنَّها صورةٌ لمعنىً بلاغيٍّ واحدٍ انتظم في آية واحدة .

مراجع البحث و مصادره

١- أثر السياق في تحديد دلالة " علم " في القرآن الكريم . د / صـــيوان خضـــير " جامعة البصرة – كلية الآداب – مجلّة آداب ذي قار – مجلد (١) – العـــدد (٤) سنة ٢٠١١م. "

٢- أثر السياق في اصطفاء الأساليب دراسة بلاغيّة . د / إبراهيم صلاح الهدهد. ط- الأولى ، الجريسي ١٤٢٣ه – ٢٠٠٢م.

٣- أسرار ترتيب القرآن للسيوطي. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. ط – الثانية ، دار الاعتصام ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م.

٤- تاج العروس للزبيدي. تحقيق : على هِلالي. ط – الثانية ، مطبعة حكومة الكويت ١٤٠٧ هـــ - ١٩٨٧م.

٥- التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور. ط – الدار التونسيّة ١٩٨٤م.

٦- تفسير أبي السعود. ط – دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت – لبنان.

٧- تفسير البَغَوي للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البَغَوي. تحقيق : محمد عبد الله ، و عثمان جمعة ، و سليمان مسلم: ٨ / ٥٤٠. ط – دار طيبة – الرياض ١٤١٢ه.

٨- تفسير الفخر الرازي. ط – الأولى ، دار الفكر ١٤٠١هـــ - ١٩٨١م.

٩- تناسُق الدرر في تناسب السور للسيوطي . تحقيق : عبد القادر أحمد عطا. ط – الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت- لبنان ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م.

١٠- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك . تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي. ط – الأولى ، دار الفكر ١٤٢٤هـــ - ٢٠٠٣م.

١١- حاشية القُونَويّ على تفسير البيضاويّ و معه حاشية ابن التمجيد. تحقيق : عبد الله محمود محمد عمر. ط- الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤٢٢ه – ٢٠٠١م.

١٢- الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني سورة يوسف أنموذجا " ماجستير للطالبة / أمنة عشاب - وزارة التعليم العالي – جامعة حسيبة بن بو علي بالشلف– كلية الآداب و اللغات ٢٠٠٦م – ٢٠٠٧م.
١٣- دلالات التراكيب. د / محمد محمد أبو موسى . ط- الرابعة ، مكتبة وهبة ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م.
١٤- دلالة السياق و أثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام " رسالة ماجستير للطالب / فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي - كلية الدعوة و أصول الدين – جامعة أم القرى – المملكة العربيّة السعوديّة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
١٥- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيريّة. د / محمد إقبال عروي. ط - الأولى ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلاميّة – دولة الكويت ٢٠٠٧ م – ١٤٢٨هـ.
١٦- روح المعاني للألوسي . ط- دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان.
١٧- العمدة لابن رشيق . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد. ط – الخامسة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٨- الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد إبراهيم سليم . ط – دار العلم و الثقافة.
١٩- الكشاف للزمخشري . تحقيق : الشيخين : عادل أحمد عبد الموجود ، و علي محمد معوض. ط- الأولى ، مكتبة العبيكان – الرياض ١٤١٨ه – ١٩٩٨م.
٢٠- اللباب في علوم الكتاب للإمام أبي حَفْص عُمَر بن عليّ الدِّمَشْقيّ الحَنبليّ . تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، و الشيخ علي محمد معوض. ط – الأولى، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٢١- لسان العرب لابن منظور. تحقيق : عامر أحمد حيدر. ط – الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣م.

٢٢- المحكم و المحيط الأعظم لابن سيده. تحقيق : د / عبد الحميد هنداوي . ط – الأولى ، دار الكتب العلميّة ، بيروت – لبنان ١٤٢١ ه – ٢٠٠٠م.
٢٣- " مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي مراجعات منهجيّة " للأستاذ الدكتور / محمود توفيق سعد . مجلة (جذور) العدد (٣٢) بتاريخ ١ / سبتمبر / ٢٠١٢م .
٢٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري. تحقيق : د / عبد اللطيف محمد الخطيب . ط – الأولى ، الكويت ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٥- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني . تحقيق : وائل أحمد عبد الرحمن. ط – المكتبة التوفيقيّة ، القاهرة - مصر .
٢٦- مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق : عبد السلام محمد هارون. ط – دار الفكر.
٢٧- مِلاك التأويل للغرناطيّ . تحقيق : عبد الغني محمد علي . ط – دار الكتب العلميّة.
٢٨- نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي. ط – دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٢٩- الوجوه و النظائر لأبي هلال العسكري. تحقيق : محمد عثمان. ط – الأولى ، مكتبة الثقافة الدينيّة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.